تقتصر على عرض مظهر جزئي من الحياة أو على القاء الضوء على لحمة بارزة منها. قد يجوز ذلك في القصة، إمّا الرواية فتسعى الى اعطاء صورة متكاملة عن الحياة والى ابراز اشكالية العالم عبر سيرورة من الأحداث. ولنأخذ، على سبيل المثال «عائد إلى حيفا»، فلو أنّ غسان كنفاني اقتصر على تصوير دخول الزوجين الى حيفا وانتظارهما لابنهما ثمّ اصطدامهما بكونه أصبح جندياً اسرائيلياً لكان لهـا من الحدّة والتوتر ما يجعلها قصة ناجحة تصوّر اشكالية الواقع بطريقة صارخة، ولكن غسّان لم يقتصر على هذه اللمحة بل عرّفنا بماضي الأبطال وبظروف الخروج وكيف عاشه العرب واليهود، وعرّفنا بـظروف الأبطال النفسية وحاسبهم على ما حملوه من أحلام زائفة خلال عشرين سنة، وصدمهم بواقعهم، ثمّ طرح الحل في حكاية «فارس اللبدة». وبذلك، لم يعد البطل مجرّد محور لحدث ما بل أصبح له ماض وظروف وأحاسيس وآراء. كـمـا أن الأحداث تشعبت واقتربت من تشعب الواقع وعكست المرحلة التاريخية المتحدث عنها، وبذلك فانّ هذه الأحداث كوّنت كلاّ تمثل في تجربة الأبطال الأربعة، بماضيها ومستقبلها.

ان روايات غسّان كنفاني ترتبط ارتباطاً عضوياً بالمرحلة، وحتى عندما لا تصوّر البيئة تصويراً مفصلاً، فاننا نستشفُّ العلامات الكبرى التي تحددها، ونعرف المرحلة التي وقعت فيها أحداث الرواية. فقد لا يحدّد الكاتب القرية التي ينتسب اليها الأبطال، ولكن المكان الذي يكيف حياتهم معروف، فهو المخيّم أو الصحراء أو البراري أو بعض المدن العربية. وقد لا يحدّد السنة التي وقعت فيها الأحداث ولكنّها كثيراً ما تحدّد بوطأة السنين. فاحداث «رجال في الشمس» وقعت بعد الخروج بعشر سنوات، و«ما تبقى لكم» بعده بست عشرة سنة و«عائد الى حيفا» بعشرين سنة...

إن عالم الرواية يستمد من الواقع، من الحياة العامة؛ ولكن احداثهـا تعرض كتجربة شخصية لفرد ما أو لأفراد فتبدو الأحداث العامة في الوقت نفسه احداثاً خاصة. وللفرد قيمة في مَحْورة الأحداث، وقد عبّر «لوكاش» عن هذا المعنى في كتاب نظرية الرواية فقال: «ان الرواية هي الشكل القائم على المغامرة، وهي التي تتناسب مع القيمة الخاصة للتبطين. انّ محتواها هو حكاية تلك النفس التي تسعى في العالم لتتعلم كيف تعرف ذاتها وتبحث عن المغامرات كامتحان لها، وبذلك الامتحان تظهر قدرتهـا وتكشف جوهـرها الخاص»(١).

من خلال هذه المقولة، نلمس ظاهرة هامة في الرواية وهي أنها تتمثل في مجموعة أحداث تعترض البطل. وهذه الأحداث هي التي تخلق شخصية البطل فهي شخصيّة نامية تتكشّف شيئاً فشيئاً وتكتمل باكتمال الرواية. ثمّ انّ المحتوى الذي يرمي الكاتب الى ابلاغه يتجلّ عبر تلك الأحداث ومن خلال سلوك البطل. أمّا الخيط الذي يوحّد الرواية، فهو سيرورة التجارب التي يخوضها البطل، أو الأبطال، للوصول الى غاية ما؛ وخلال سعيه يكشف عن سمات العالم الذي نعيشه وتنتهي الرواية بانتهاء تجربته. واذا نظرنا في روايات غسّان، نجدها تقوم على مثل هذه المغامرات فـ«رجال في الشمس» تقوم على مغامرة الأبطال الأربعة في بحثهم عن شيء يعيش في كيانهم. يخرجون في الظاهر للبحث عن المال، والمال هو الواسطة لحاجاتهم الحقيقية؛ فأبو القيس يطلب حقل الزيتون وأسعد يبحث عن الأمن ومروان يحلم بحياة سعيدة لأمّه واخوته، أما أبو الخيـزرَان فيحلم